

المحاضرة الأولى

هويّة الأمة العربيّة الإسلاميّة في مواجهة

التحدّي لعقيديّتها وقيمتها

الأستاذ الدكتور عدنان محمد زرزور

كلية الشريعة – جامعة قطر

السبت 16 شوال 1412هـ، - 18 نيسان 1992م

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد :

أبدأ أولاً بالملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: لا نذهب في تفسير "الهوية" الواردة في عنوان المحاضرة - بل في عنوان هذا الموسم الثقافي - إلى أكثر من كونها تعبيراً عن "ذاتية" هذه الأمة، أو "شخصيتها" المتجذرة عبر عصور التاريخ .

وهذه "الشخصية" بدورها أساسها ومنطلقها "الثقافة"، أو هي بعبارة أدق: صورتها التطبيقية المكافئة والمساوية.. تأسيساً على الفكرة القاطنة: إن الثقافة تساوي الشخصية بوجه عام، وم ع ملاحظة أن الحديث منصب ع لى تحديات الثقافة الغربية لشخصية الأمة العربية الإس لامية - ألقاقتنا- بوجه خاص.

وفي جميع الأحوال، فلننأ نذهب في تعريف "الثقافة"- وعلى الرغم من تعريفي قلته، أو مقله يمهها التي تعد عند الدارسين والباحثين بالعشرات -إلى هذا المفهوم العام والشامل، الذي يأتي لحسن الحظ منسجماً مع عنوان هذا الموسم فيما أقدر. الثقافة عندنا هي المع ارف التي تتعامل مع الإنسان، أو التي يكون "موضوعه" الإنسان باعتبار هفراداً أو بوصفه عضواً في جماعة - ونميزه ا بذلك عن "العلم" التجريبي الذي يتعامل مع الكون أو الطبيعة، قال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)^(١) وقال تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَلَقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)^(٢).

ولهذا، فلن الثقافة في حقيقتها سلوك، أو هي نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة، كما يقول الأستاذ المفكر مالك بن نبي رحمه الله؛ بمعنى أنه ا وإن كانت من الوج هة النظرية "معارف" تدوّن وثائق أو تتداولها الأجيال فيسرياق خفيّ وعميق ومعقّد - تلعب فيه اللغة أو

^١ الذاريات، 20-21

^٢ فصلت، 53

اللسان دوراً حاسماً- فإنها من الوجهة العملية مملوك وممارسة، لأنها لم يمت "شيئاً" مفصلاً عن الإنسان، بل إن موضوعها هو الإنسان نفسه كما قلنا، ومن ثم فإن تعامله معها أو مع عناصرها المتشابكة والمعقدة سوف ينعكس على سلوكه ، ويحدد له من ثَمَّ سمات "شخصيته". وهذا هو أساس الربط - الذي أشرنا إليه - بين "الثقافة والشخصية"، من جهة، وأساس التمييز - الذي تجب ملاحظته - بين أنواع "الشخصيات" التي تتوازعها ثقافات الأمم والشعوب... في خريطة ثقافية واضحة السمات، من جهة أخرى. ومن بينها، أو على رأسها: الشخصية الأوروبية، والثقافة الغربية، بطبيعة الحال.

الملاحظة الثانية:

إن التعبير عن هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة تحديات الثقافة الغربية- أو بعيد عصر الصدام مع الحضارة الأوروبية- أخذ شكلاً اتجاه.. من خلال أن كثيراً من الشرائح المثقفة سقطت في امتحان التحدي- وهي تظن غير ذلك بطبيعة الحال- فتناكبت ثقافتها، وأضاعته، أو كادت، معالم شخصيتها.. كما فعل الماركسيون وغلاة الفكر القومي والعلماني.. كما سأوضح بعد قليل.

وهكذا صار الحديث عن الإسلام أو عن الهوية الإسلامية حديثاً عن اتجاه وسط هذه الاتجاهات العلمانية أو الماركسية- المنقولة أو المستعارة من "الثقافة الغربية"- أو بعبارة أدق: من تاريخ المجتمعات الأوروبية؛ بوصف هذا التاريخ- في مرحلة معينة أو في عصر النهضة- هو الذي أفرز هذه المذاهب والشعارات والمقولات.

وضاعف من خطورة هذه المسألة، وما يزال يضاعف حتى الآن، أن الذين تقدموا للتعبير عن هذه الهوية الإسلامية، وقع الكثير منهم- بخاصة في نطاق الدعوات التي غلب عليها الطابع الفوقي أو الحزبي، أو التي وقع أصحابها في ردود الأفعال- إما في خطأ التصور، أو في خطأ

الممارسة. وفي الوقت الذي كرّسوا، بهذه الأخطاء ، مقولة: إن الإسلاماتجاه وليس بمويدة! فلن أصحاب الاتجاهات الأخرى بالغوا، أو تعمدوا، في حل هذه الأخطاء على الإسلام أو على الهوية ذاتها! وليس على دعائه أو المعبرين عنها.. أو المنادين بضرورة إعادة صياغة الإسلام لحياة الجماعة مرة أخرى .

أقول: لقد حان الوقت بعد هذه التجارب المريرة ، والهزائم المتلاحقة التي لحقت بالأمة العربية الإسلامية، وما تزال تلحق بها حتى اليوم، وبعد هذه التراجعات الحادة التي تمت في محيط الثقافة الغربية نفسها.. أ نيعود التعبير عن هذه الهوية مطلباً قومياً ينظم جميع فئات الأمة، وجميع شرائحها.. على اختلاف مشاربهم، ومناحي تفكيرهم.. بل على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأعراقهم؛ بوصف الثقافة العربية الإسلامية... أو بوصف الإسلام يمثّل المشروع العليّ - كما يقال بلغة القانون - في حياة العرب والمسلمين أجمعين.. الذي لا يمكن لهذه الأمة أن تتجمع صفوفها، وتتوحد كلمتها على غيره، أو في غير رحابه مرة أخرى.

وما لم نصل إلى الاتفاق على سمات هذا المشروع الحضاري العربي الإسلامي.. سبيلاً للوحدة والنهضة والتقدم؛ فإن عصوراً قادمة من الذل والهوان سوف تنتظرنا لا قدر الله!

الملاحظة الثالثة:

إنني سوف أتناول في هذه المحاضرة ب شئ من التفصيل: تحدي الثقافة الغربية للعقيدة الإسلامية، أو للعقيدة والفكر الإسلامي. أما تحدي هذه الثقافة لقيم الأمة التي عُطفت في عنوان هذه المحاضرة على العقيدة - فإن أريد بها القيم الكبرى التي شكّلت روح الحضارة العربية الإسلامية.. أو مبرراتها التي دارت عليها عجلتنا في التاريخ؛ فإنها- أي هذه القيم،

كالمسؤول، والعدل، والحرية - يمكن أن تسلك ضمن التحدي الثقافي معناه العام أو الشامل.. تأسيساً
أو انطلاقاً من الفروق بين الثقافتين العربية والأوروبية أو بين الحضارتين العربية الإسلامية،
والأوروبية المسيحية.

وإن أريد بهذه القيم: القيم الأخلاقية المؤسّسة على فكرة الخير والشر، والحسن والقبح.. أو
المنطلقة من قاعدة الحلال والحرام.. كالصدق، والشجاعة، والكرم.. والعفة والحجاب وبرّ
الوالدين.. وسائر الروابط الأخلاقية للأسرة علسريلي المثال؛ فإنني أكتفي بالإشارة إلى هذه القيم في
هذه الملاحظة فأقول: إن هذه القيم يمكن إضافتها حقيقة إلى العقيدة أو إلحاقها به.. على أساس
الثبات الذي تتمتع به مع أحكام العقيدة ومسلّماتها التي جاءت في القرآن والسنة. وربما كذلك
على أساس الروابط القويّة التي تشد هذه القيم إلى العقيدة.

وقد فعل ذلك طلباً للاختصار على أقل تقدير إذا قيل إن هذه القيم لا تتمتع بمزية إضافية في كلاً
هذين الأساسين أو السببين السابقين على سائر عناصر الثقافة الإسلامية أو مكوناتها.

إن التحدي الذي قام في وجه هذه القيم من قبل الثقافة الغربية، وبخاصة في حقول الأخلاق
والتربية والاجتماع، جاء من خلال (الروح العمانيّة) بوجه عام، ومن خلال (فكرة التطور) التي
حكمت أكثر من حقول الثقافة والعلم جميعاً.. بوجه خاص.

وغني عن البيان أن هذه الفكرة ارتبطت بالنزعة المادية، أو بالانطلاق في دراسة
الإنسان والمجتمع من خلال (الواقع) - أو كما تدرس الطبيعة - الأمر الذي مهد لسقوط فئوة الجانب
المعياري في الأخلاق والاجتماع، أو
في النسق القيمي بوجه عام، الذي أفضى في نهاية المطاف إلى القول بنسبية الأخلاق العرفي،
وإلى الشك في ثبات الفضائل وإلى إنكار وجود علم الأخلاق النظري.. وإلى الحديث عما هو
كائن.. لا عما يجب أن يكون.. إلخ.

ويمكننا اليوم ملاحظة أثر هذا السقوط أو الإنكار في أبرز مشكلات العالم المعاصر ، وأعني بها المخدرات أولاً، ثم الأمراض الناتجة عن الانحلال.. التي نعتقد به هذه المناسبة أن علاجها يجب أن يلتبس أول ما يلتبس في إعادة النظر بهذا النمط الثقافي السائد، وما أشاعه من ن تكالم فلهيم... وسائل الفلهيم الأخرى، كالكتب، والحرية، وصناديق الانتخاب، وحق التشريع... إلخ.

الملاحظة الرابعة والأخيرة:

إن التحدي الذي قام في وجه هوية الأمة في جانبها العقدي - بوصفه الهوية تعبيراً عن ذاتية الأمة، أو عن شخصيتها المتجذرة عبر عصور التاريخ، كما أشرنا في الملاحظة الأولى- يوحى لنا بضرورة التفريق بين العقيدة التي تشكل ضمير الأمة ، والعقيدة التراثية التي انحدرت إلينا منعصور الخلاف المذهبي ، والتي ما تزال ندرسها أو ندرسها في المعاهد والجامعات! لقد قام التحدي الحقيقي في وجه العقيدة / الهوية التي تعيشها الأمة ، والتي تشكل ضميرها وروحها، وتسري في كيانه.. والتي تعتمد عليها وتنطلق منها في حياتها اليومية أو في حركة هذه الحياة. أما العقيدة التراثية ، أو تلك التي خلّفها المسلمون في عصر سابق.. وأعني بها عقيدة المرجئ والخوارج، والأشاعرة والمعتزلة! أو عقيدة الأسماء والصفات، والجبر والاختيار.. والرؤية وخلق القرآن.. والتي يمكن أن نسميها أن نطلق عليها الفكر العقائدي الذي ورثناه عن الأسلاف، فليست هي المقصودة في هذا السياق ، لأنها كانت خارج معركة التحدي إلى حد كبير، وربما كان لها دور سلبي في بعض الأحيان.

وفي جميع الأحوال فإن من واجبنا تسليط الضوء على التحدي الأول، تحدي العقيدة / الهوية.. أو العقيدة التي تشكل أبرز ملامح هذه الهوية على الإطلاق.

نخلص من ثم إلى الحديث عن هذه التحديات التي قامت في وجه هذه العقيدة، والتي يمكن تصنيفها في عدة أنواع، مؤثرين الحديث عن التصنيف القائم على المباشر وغير المباشر.

أولاً: التحديات المبلشرة:

١. المذاهب المناقضة للتصور الإسلامي عن الكون والحياة والإنسان بوجه عام، والمتمثلة في المذهب المادي المعاصر (الماركسية) والمذاهب الوجودية - على الجملة - وسائر الفلسفات التي ناقضت العقيدة الإسلامية أو الإيمان - في طرفيها أو ركنيها الرئيسيين: الإيمان بالله واليوم الآخر. أو العلة الأولى والغاية الأخيرة - بغض النظر عن الأسماء والمصطلحات، أو التي حاولت أن تعطي تفسيراً لنشأة الكون وظهور الإنسان على نحو يناقض فكرة الخلق والإيجاد منعدم أو يُفضي إلى الإلحاد!

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن (المعاصرة) التي توصف بها هذه المذاهب ملك للحضارة التي أفرزتها.. والتي أعطت للمعاصرة بوجه عام، أول للعالم المعاصر سماته الراهنة.. فإن هذه المذاهب مثلت في الحقيقة تحدياً خارجياً أيضاً! الأمر الذي نستطيع معه أن نذهب إلى القول: إن الشريحة من المتقنين من أبناء العروبة والإسلام التي طلبت هذه المذاهب، أوتبرتتها.. أو تأثرت بها منهجاً وقوالب تفكير وطرائق، في بعض الأحيان، أو نتائج وأحكاماً في أحيان أخرى.. إنما كانت تطلب الحداثة والمعاصرة بالولاء والتبعية، أو المحاكاة والتقليد!

والمشكلة هنا هي أن هذه المذاهب المتناقضة بوصفها جزءاً من الثقافة الأوروبية.. ولدت من خلال التقلعات الاجتماعية وظروف النهضة في عصر معين في تاريخ المجتمع الأوروبي، وقد تم نقل هذه المذاهب أولاً عبر الترجمة والتأثير المباشر، ثم عبر الإسقاط على التاريخ

العربي الإسلامي، واليقافة العربية الإسلامية بحثاً عن أسانيد أو شواهد لهذه المذاهب والآراء! أو استنباطاً لها في تربة اليقافة والفكر الإسلامي. وفي كلتا الحالتين لم ترق إلى درجة القبول لدى عامة المبحثين، فضلاً عن محيط الأمة وهويتها العقائدية! فبقيت معزولة أو مقصورة على فئة قليلة من المبحثين! كما بقيت الفلسفة اليونانية والفكر اليونان مقصوراً على عدد قليل من الفلاسفة والمفكرين في عصر سابق! علماً بأن الترجمة الأولى لهذه، أو التي تمت في عصور المجتمع الإسلامي الأول، لم تشكل تحدياً على هذا النحو، لأسباب كثيرة، من أبرزها أن هذه الترجمة تمت في ظل مناخ السيادة و(التوظيف) أي سيادة الحضارة الإسلامية، وتوظيف الفلاسفة أو المنطق للدفاع عن الإسلام وشرح حقائقه وثوابته. بالإضافة إلى أن الأجداد تعاملوا مع مكتبات ومتاحف! فالتراث اليوناني في جملة ما لم تكن تمثله في ذلك الوقت حضارة قائمة.. فضلاً عن أن تكون غالبية أوساطه! أو ترقى إلى مستوى الحضارة العربية الإسلامية على أقل تقدير. في حين أن الدعوة إلى المذاهب المعاصرة اليوم تمت في مناخ (التوظيف) والرغبة في الانتقال.. بل وصل الأمر بالماركسيين في وقت سابق إلى الدرجة الارتهاان الثقافي.. بل إلى ما هو أبعد من ذلك في بعض الأحيان. وقد ساعد موقع الغرب المتقدم، وصنعه للحضارة الراهنة على الدعوة لهذه المذاهب تحت عنوان المعاصرة واللاحق بركب الشعوب المتحضرة كما قلت! ولم يكتشف الماركسيون -وربما إلى وقت متأخر- أنهم كانوا يحطون بحبل الآخرين! وأنهم خارج نطاق التاريخ! حتى لفظهم التاريخ!

والنقطة التي تشير إليها في هذا السياق: مدى التحدي الذي أصاب الهوية العقائدية، أو هوية الأمة في هذا الجانب! فقد بدا للناظر في ظل الأنظمة التي تبنت الفكر الاشتراكي أو العقيدة الماركسية - بصورة من

الصور - والتي تمكنت من قيادة بعض المجتمعات العربية في غياب الحرية والديمقراطية، أو من خلال إزهاق روح الحرية والديمقراطية والشورى.. لقد بدا للناظر أن هذه الهوية معرضة لخطر التحوير والتبديل، ولكن الذي نراه أن الضرر الذي لحق بهذه الهوية لا يكاد يذكر! لأن تحدي العقيدة الماركسية السافر والمباشر حاصرها وقلل من خطورة أثارها.. بالإضافة إلى السخف الذي انحدرت إليه الماركسيون، والمناقضة الحادة التي وقعوا فيها في مسألة الإنكار والإلحاد، نظراً لمناقضة الإلحاد للفطرة الإنسانية السوية.. فضلاً عن الفطرة التي وجدت تلبية لنوازعها في رحاب العقيدة الإسلامية على وجه الخصوص. الأمر الذي جعل من العقيدة الماركسية والفكر الماركسي شذوذاً أو حالة شاذة في العالم العربي والإسلامي.

وأياً ما قيل بشأن سلبات الثقافة التي واكبت المجتمعات الإسلامية أو انحدرت إليها من عصر الركود، وأياً ما قيل كذلك بشأن الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة في هذه المجتمعات؛ والتي تم توظيفها أو استغلالها في الدعوة إلى الماركسية وسواها من العقائد والفلسفات.. فإن الأمر ما كان له أن يصل إلى حد العدوان على الهوية، أو القدرة على تحويرها أو تشويها! بل لم يحصل ذلك - في أي مرحلة - على الرغم من الحاجة السياسية للاتحاد السوفيتي - وما صاحبها من قبل الماركسيين من سوء استغلال وتوظيف - وعلى الرغم من تصويير التأييد والنصرة، وربما الحل للقضية الفلسطينية بكل تأثيرها وثقلها في النشور والفوس والعقول، من خلال حركة اليسار الأوروبي والإسراييلي.. أو الاشتراكية الدولية.. أو وجودية سارتر.. إلخ..

وليس من واجبنا هنا أن نفصل القول في هذه النقاط و سواها من نقاط التأثير.. لأن الذي يعيننا تأكيده هنا: سقوط هذا التحدي، العقدي أمام

العقيدة الإسلامية الهوية، وبيان أسباب هذا السقوط، وتأتي الإشارة إلى حجم هذا التحدي، وإلى ظروف نجاحه المساعدة (سياسياً ونفسياً واجتماعياً وحضارياً وثقافياً..)، في سياق الحديث عن مدى الفريضة التي انفسحت أمامه ليصيب نجاحاً أو طرماً من النجاح. وجملة ما نراه في هذه النقطة - بكل ملبساتها المعقدة أن الأمة لو جاز لها أن تتنازل عن هويتها العقائدية - أو لو قدر لها أن تفعل ذلك في موقف أو زمان! لكان زماننا الذي أشرت إليه أولى الأزمنة بذلك .

أما أسباب هذا السقوط، أو بعبارة أخرى: أما أسباب نجاح الهوية المعاصرة أمام هذا التحدي، فأركز منها على سريتين، يتصل أولهما بالعقيدة الإسلامية، ويتصل ثانيهما بالعقيدة الماركسية.

السبب الأول:

قوة الصمود التي تمتعت بها العقيدة الإسلامية في عصور الانحسار والانكسار التي مرت بها الأمة الإسلامية في جميع مراحل التاريخ. وقد عزا الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله قوة الصمود إلى صفات الشمول، التي توصف بها هذه العقيدة، كما عزا إليها - في الوقت نفسه - قوة الغلبة التي تمتعت بها في عصور الفتح وسعة الانتشار.

والذي نراه أن حديث الأستاذ العقاد رحمه الله عن هذه العقيدة الصامدة التي اعتصمت بها الأمة في الشدائد، منصب على عقيدة القرآن، أو العقيدة التي تطالعها الأمة في كتابه الخالد.. والتي لم يتفصل عن ضميرها في يوم من الأيام. وكيفي عرنا في بيان حيوية هذه العقيدة، وأثره الفاعل الذي يقطع أن نشير فقط إلى الإيمان بأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى.. بوصف هذه الأسماء والصفات تمثي فحول العقيدة الإسلامية، لأنها تتطوي على حقيقة الإيمان بالله - الركن الأعظم للإيمان والاعتقاد - وعلى مضمون الصلة بين الإنسان وبين الله سبحانه

وتعالى. وغني عن البيان أن هذه الصلة الفاعلة المؤثرة هي مناط الاعتصام ا لسابق.. لأن الله تعالى هو الملك، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر. ولأنه سبحانه هو الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، ولأنه جل شأنه هو السميع البصير، المحي المميت..

ولو أن المسلمين في هذا العصر، وفي سائر عصور انحسارهم، لم يتجاوزوا في فهم هذه الأسماء والصرفلت والتعامل معها، أقرب المعاري لكان ذلك كفيلاً بإبقاء جذوة الإيمان حيّة.. من جهة وقادرة على منازلة عقيدة الإنكار، وسائر العقائ المناقضة، والتعفية على أثارها.. من جهة أخرى.

والعجيب في هذه النقطة، أو اللافت للنظر حقاً: أن تتكئ بالمتكلمين، أو أصحاب الفكر العقائدي المشار إليهم، لهذه العلاقة المؤثرة بأسماء الله تعالى والصلة بها.. لم ينجح في قطع هذه العلاقة أو لم تؤثر سلباً على أقل تقدير. وذلك لسببين: الأول أن ج م هو المسلمون كان يعقل هذه الصرفلت عن القرآن الكريم لا عن المتكلمين! وهذا يعني العو دة بمعادلة هذه العلاقة إلى وضعها الصحيح.. أي المتمثل بعلاقة المسلم بهذه الصفات وما يوجب عليه الإيمان بها.. أو كيف يكون مؤمناً بأن الله هو الرازق، والرقيب، والنافع، والمعز، والمجيب.. إلخ لا في حدو د القلب واللسان، ولكن في ساحة العمل والابتلاء، وفي حركة الحياة التي شملت هذه الأسماء والصرفلت جميعاً ومن غير استثناء! في حين أن المعادلة التي شغلت المتكلمين كانت تدور حول علاقة الصفات بالذات، أو الذات بالصفات!!

السبب الثاني: أن المتكلمين أنفسهم، حتى ولو كان بعض المسلمين ما زالوا يجادلون عن عقيدتهم من خلال مدارس علم الكلام القديمة..

وعلى الرغم من أن دراساتهم -أي المتكلمين- أحالت هذه العقيدة الحية الفاعلة ، وتلك العلاقة السلوكية بأسماء الله تعالى الحسنى، والصلة بها جدلاً عقيماً.. فإنهم جميعاً أرجعوا علاقة المسلم بأسمائه تعالى الثلاثة: الرزاق ، المحيي ، المميت، إلى وضعها الصحيح.. من خلال إجماعهم -على اختلاف مناهجهم- على أن الرزاق والآجال بيد الله تعالى وحده!

ولقد كانت هذه العلاقة الإيجابية بهذه الأسماء الثلاثة كافية لضموم المسلمين ، ولا اعتصامهم بعقيدتهم. بل كانت كافية لبذل المال والنفس، أو للجهاد بالنفس والمال.. وصولاً أو طلباً للحياة الفضلى.. فضلاً عن أنالفقر والظلم الذي وقعوا فيه أو لحق بهم لم يشكل عندهم ذلك المناخ المناسب أو الكافي لقبول الفكر الماركسي.. كما شكل عنه غيرهم علسبيل المثال.

والذي يؤكد عن بقاء هذه العقيدة القرآنية حيّة فاعلة.. إن المسلمين اليوم على اختلاف أقطارهم باتوا يطلبون مستلزمات هذه العقيدة وتوابعها بعد رحلة الاغتراب والتغريب الطويلة خلال ما يزيد على مائة عام! وأعني بهذه المستلزمات والتوابع: ال شرعية ونظام الحياة.. أو سائر عناصر الثقافة الإسلامية ومكوناتها من اقتصاد وتربية وأخلاق، واجت ماع، وفنون.. إلخ بوصف هذه العناصر جرى فصلها أو العدوان عليها إلى حد كبير من خلال الفكر العلماني، أو التأثير العلماني.. وبوصف هذه العناصر أو المكونات مؤسسة على العقيدة ومنطلقة منها ، أو بوصف هذه العقيدة تمثل قاعدة الثقافة الإسلامية. وقد لا يكون استدعاء هذه العناصر اليوم قد بلغ مداه -على الرغم من أن التغريب بات يفرض على المسلمين بقوة السلاح مرة أخرى- ولكنّه بالغه بكل تأكيد.. وعقيدة المسلم تهيبه أو تنهض به إلى التخلص من الفصام والتناقض بين العقيدة ونظام الحياة.

هذه خلاصة عن الشرب الأول المتصل بالعقيدة الإسلامية من أسباب نجاح الهوية العقائعية للأمة العربية الإسلامية أمام التحدي العقدي الماركسي.

أما السبب الثاني:

وهو متصل بالعقيدة الماركسية ذاتها - فيما وراء شذوذ الإلحاد ومناقضته للفطرة الإنسانية كما قلنا- فيعود إلى أن الماركسية كانت قد بدأت بالانحسار منذ زمن بعيد.. وقبل أن يتم تزيينها لأبناء الأمة العربية الإسلامية بوقت طويل. إن السقوط الأخير للماركسية كان سقوطاً للنظام! أما الفكرة فإن انحسارها بدأ بعيد عرضها على التطبيق! بل إنبقاء الدولة أو النظام، كما عبرت عن ذلك في بحث نشرته في عام 1980، كان مرهوناً بمدى التراجع عن المذهب أو الفكرة لا بمقدار التطبيق! وقلت: إنه لا ينبغي أن يؤخذ من قيام الدولة أو النظام دليل على (صلاحية) الفكرة! بل على العكس.. وأعجب لعقيدة ينجح النظام الذي يمثلها في البقاء والاستمرار بمقدار تخليها أو تراجعها عن هذه العقيدة لا بمقدار تطبيقها! وقارن هذا بعقيدة الإسلام ونظام الإسلام لتعلم مدى سقوط تحدي العقيدة الماركسية والفكر الماركسي للعقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي!

فلذا أضفنا إلى هذه الملاحظة، ملاحظتنا الأخرى القاطنة إن هذا التراجع كان يتم لصالح الأوضاع السائدة في روسيا وأقاليم الاتحاد السوفيتي - قبل أن يتمكن من قيادته الماركسيون - وأعني الأوضاع الاجتماعية والميراث الثقافي على وجه العموم- استطعنا أن نفسر انتعاش العقيدة الأرثوذكسية اليوم في روسيا.. وبروز سائس السمات التي تؤهل المجتمع الروسي لأن يجد نفسه في سياق سائس المجتمعات الأوروبية الأخرى: ديناً وسياسة واقتصاداً.. مرة أخرى. قلنا في بحثنا: العالم

المعاصر: مدخل إلى الحضارة البديل: بعد أن علّ لنا مطولاً رفضنا لفكرة العالم الثالث، انطلاقاً من ملاحظتنا لوحدة الشخصية الأوروبية والحضارة الأوروبية ، قلنا: (و حين يتفكك النظام الاشتراكي أو تنحل الفكرة الماركسية أو تتحلل! فإن أمراً ليس بذى بال سوف يق ع في المجتمع الأوروبي أو الحضارة الأوروبية، لأن انتماء (المجتمعات الاشتراكية الأوروبية) - إن صح التعبير - إلى هذه الحضارة لن يمسّ.. بل سيعادتأكيه مرة أخرى..)، ص 75.

وقد نفهم من هذا سقوط العقيدة الماركسية في تحديها للعقيدة الدينية المسيحية - مع تأكيد الدور الذي قامت به المؤسسة الكنسية في هذا السقوط، ولو على صعيد الدولة والنظام- على الرغم من أنها ربما جاءت مبررة أو مفهومة بعض الشيء في سرياق الشخصية الأوروبية المسيحية، وأوضاع المجتمع الأوروبي التاريخية، وعلاقته بالكنيسة ، وميراثه الثقافي وعلى الرغم من بعض الأمور الأخرى. وهذا يعني أو يذكّر مرة أخرى بسقوطه الأشد في تحديها للعقيدة الإسلامية، ومناقضتها للإسلام؟ الأمر الذي يجب أن يقطع - اليوم- أي تعلّق غبي، كما يستحق أن يوصف ، لعربيّ أو مسلم بهذه العقيدة.

2 - أما التحديّ المباشر الثاني الذي قام في وجه العقيدة الإسلامية فقد تمثّل باستدعاء التأويلات الفاسدة، والمذاهب المنحرفة التي خرجت بالعقيدة الإسلامية عبر عصور التاريخ عن فحواها، أو حاولت تنقيحها من هذا المحتوى. وقد قام بهذا الاستدعاء الماركسيون وبعض أصحاب الفكر المترجم أو المنقول، في الأعم الأغلب؛ التماساً لبعض الأسانيد - من واقع تاريخ المسلمين - لهذا الفكر.. أو تأكيداً لبعض مقولاته وتفسيراته. كما قام بهذا الاستدعاء، أو البعثوا لإحياء - في أحوال قليلة - بعض الباحثين الذين كان لهم هوى في هذا التحدي، أو في هذا التشويه العقائدي، إن صح التعبير ، سواء

أكان لهم انتماء تاريخي لبعض الفرق التي تبنّت هذه التأويلات فيالتاريخ، أم لم يكن ⁽¹⁾. ويبدو أنهم فعلوا ذلك رغبة في تقليص دور العقيدة الدينية ، أو للتشكيك في صلاحية ال دين - بهذه - التناقضاتوالمفهوم المتعاضة - ليكون أساساً للنهضة مرة أخرى⁽²⁾.. الأمر الذي يمهّد للدعوة إلى العلمانية، أو يصبّ فيها في نهاية المطاف.

وربما كان الباعث على هذا ، من الأصل ، الرغبة في التبشير بالفكر الأوروبي، أو الانتقال بالمجتمعات العربية إلىسلامية إلى أحضانهم مدارس مختلفة! نظراً لعدم قدرة هذه التأويلات على الصمود أمامالعقائ والفلسفالت المعاصرة بوجه عام، وأمام العقيدة الإسلاميةالقرآنية بوجه خاص.

وعلى الرغم من أن أثر هذا التحدي، الذي يمكن عدّه تحدياً داخلياً، كان محدوداً إذا ما قيس بالتحدي السابق، وخصوصاً بعيد عصر الصدام مع الغرب - ولكنه قد لا يكون كذلك بعد إفلاس المذاهب الأوروبيةالسابقة، بدءاً من انحسار الفكر الوجودي في وقت مبكّر، وانتهاءً بالسقوط الاشتراكي الأخير- فإن هذا التحدي قد يجري تأكيده أو التركيز عليه مرة أخرى وإن كان سقوطه في جميع الأحوال لا يحتاج إلى تأكيد، خصوصاً إذا ذكرنا هزيمته السابقة من جهة، وعدم قدرته عللالصمود أمام انتشار المعرفة والثقافة وشيوع العقلية والعلمية..

(1) انظر: على سبيل المثال أعمال عارف نمر، التي حاول فيها نفخ الروح في المذاهبالباطنية. وانظر : بوجه خاص مقدمته لكتاب

(أساس التأويل) التي تحدث فيها عن نظريةالتأويل عندهم معاشر الإسماعيليين، التي جاء فيها بكل عجيب وغريب!

(2) أو لنفي أن تكون العقيدة الإسلامية هي هذه التي يدعو إليها المصلحون من خلالالكتاب والسنة، وبقواعد اللغة والعقل ، بل يمكن أن توصف بها كذلك (عقائ) بعضالفرق الغالية السابقة، التي ينتظمها السلك الباطني، أو القول بالظاهر والباطن في تفسيرالقرآن الكريم.

إلى جانب الإلمام باللغة العربية وبشروط تفسير القرآن الكريم في هذا العصر.. من جهة أخرى.

ثانياً: التحديات غير المباشرة:

أما التحديات غير المباشرة التي واجهت هوية الأمة في عقيدتها وقيمها.. فنريد بها تلك التحديات التي لم تشكل مناقضة لمفردات هذه العقيدة وأحكامها - بوجه عام- ولكنها أثوت على منزلة هذه العقيدة ومكانتها في بناء الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية.. وذلك بتقليص دورها، أو محاصرة أثرها، أو بإزاحتها عن موقعها الذي تحتله في هوية المجتمع العربي المسلم .

وغني عن البيان أن هذه الإزاحة أو هذه المحاصرة جاءت في ركاب بعض الشعارات والمقولات، أو بعض المذاهب والفلسفات، لعل أبرزها وأخطرها : القومية والعلمانية. وقد أفردنا الحديث عنهما في دراسة أخرى كمسئلة ومعقدة بعض الشيء! ونكتفي هنا بالإشارة إلى أبرز نقاط التحدي الذي واجهته الهوية العقائدية من خلال الطرح القومي والتطور العلماني.

1- التحدي القومي:

ونبادر إلى القول إن التحدي الذي واجهته العقيدة الإسلامية من خلال الفكر القومي، ما كان أن يقع في بعض الحالات لولا ملابسات النشأة المعروفة في أواخر العهد العثماني.. وما صاحب هذه النشأة من ردود فعل حملت عليها سياسة التتريك.. في الوقت الذي عملت فيها لإرساليات والمدارس الأجنبية على تزيين عصر القوميات الأوروبي.. في زمن الحقوق الأوروبي والرئود الإسلامي. وقد كان لولادة الفكرة القومية على أيدي الأقليات الدينية في النطاق العثماني أسبابه العلمية التي لا تصل إلى حد المؤامرة أو لا تنطلق منها.. كما قلت في الجامعة الأردنية منذ ما

يقرب من عشرين عاماً خلت! ولئن الذي نضيفه الآن أن هذه الولادة تركت ظلالها على مسألة التحديات التي نتحدث عنها!

وفي جميع الأحوال، فإن هذا التحدي - القومي - لم يقع في ج ميعالصور ، أو في جميع الحالات، أو من خلال كلّ الطروحات، ولكنه وقع في حالتين بارزتين: الأولى: حين وصلت القومية عند بعض الغلاة إلى أنتكون عقيدة تغني عن سائر العقائد! أو ديناً يحل محل الدين ، بوصفها دين العصر! أو ديناً له كتابه، كما أن للمسلمين قرآنهم وللنصارى إنجيلهم.. قال بعضهم: (القومية بالنسبة إلينا نحن القوميين العرب دينٌ له جنته و ناره، ولكن في هذه الدنيا)، وقال آخرون: لا ينهض العرب حتى تصبح القومية العربية أو المبدأ العربي ديناً يغارون عليه كما يغار المسلمون على القرآن الكريم، والمسيحيون على إنجيل المسيح الرحيم)⁽¹⁾

والحالة الثانية: حين قُرنت القومية، أو قُرنت بها مذاهب اجتماعية وفكرية مناقضة للعقيدة الإسلامية، أو حين أعطيت القومية بعض مضامين هذه المذاهب، كالعلمانية والماركسية. ولطالما كثر الحديث عن المضمون العلماني للحركة القومية، مرة.. وقرن بين النضال القومي والنضال الطبقي مرة أخرى.. وإن كان الحديث عن هذا النضال لا يعني أمره، ولكن الذي يعني في هذه العجالة ربط آخر.. هو الربط بين القومية والاشتراكية.. أو بعبارة أدق: الربط بين الثقافة القومية الاشتراكية.. حتى إن بعض الأحزاب القومية جعلت ممأس (الثقافة القومية الاشتراكية)، مقررأس علمياً جامعياً عاماً أو مشتركاً بين ج ميع الطلبة.. في الوقت الذي تدرأس جامعات الوطن العربي: الثقافة الإسلامية، كما هو معلوم تعبيراً عن

(1) راجع كتاب: المجتمع الإسلامي المعاصر للأساتذ محمد المبارك، ص 117، دار الفكر 1980.

هوية الأمة والمجتمع! أن الثقافة القومية الاشتراكية هذه باتت تشكل خروجاً عن هذه الهوية وتحدياً لها، لا تأكيداً لها أو تعبيراً عنها! وإن شئنا قلنا: إن هذه الثقافة الجديدة باتت تشكل الرغبة في مواصفات المجتمع العربي الذي ترغب هذه الأحزاب في بناه! أو بعبارة أدق: في شرخه عنجسم الأمة العربية الإسلامية.. بوصف الإسلام يمثل المشروع العليافي حياة العرب.. الذي لا يمكن للعرب أن يجدوا أنفسهم في غير رحابهمرة أخرى.. مهما طال البحث وكثرت الشعارات، وتعددت الولاءات والانتماءات.

ولا ندري على أي حال ما مصير العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية في هذا الطرح العجيب! أو في هذا الطرح الذي يتناقض مع مقومات القومية ذاتها إذا كانت الحلقة الثانية التي تلي الحلقة القومية عندهم هي الاشتراكية أو الحلقة الاشتراكية؟ أو إذا كانت الثقافة الاشتراكية أقرب إلى الثقافة القومية من الإسلام أو من الثقافة الإسلامية! وغني عن البيان أن هويتنا الثقافية: قومية إسلامية.. وأن هويتنا الحقيقية: عربية إسلامية. ومن ثم فإن أي ربط للعربية أو العروبة والقومية بغير الإسلام، أو أي طرح يتجاوز الإسلام إلى غيره من العقائد والمذاهب أو الفلسفات أو النظم الاجتماعية يعدّ نقضاً للطرح القومي أو لفكرة القومية ذاتها، أو خروجاً عليها.. خصوصاً إذا ذكرنا (أن أسّ الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية) -بحسب عبارة ساطع العصري- اللغة والتاريخ..

وهذان العنصران أو الأساسان: اللغة العربية، والتاريخ العربي الإسلامي.. ليسا في نهاية المطاف أو في التحليل الأخير - كما أوضحنا في بحثنا المشار إليه - شيئاً مفصلاً عن العقيدة الإسلامية والثقافة الإسلامية.. أو عن الإسلام بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة!

وربما كان السبب في هذا الربط - المنكور - بين القومية والاشتراكية يعود إلى أن بعض الطروحات القومية التقت عند تقريغ القومية من محتواها الثقافي العربي الإسلامي.. مما مهدّ لربطها بعجلة ثقافات أجنبية منقولة أو منحولة! وربما ساعدتهم على ذلك أن القومية في الأصل قضية وجود، أو مسألة انتماء! وقد يحق لنا عند هذه النقطة أن نلاحظ أن القومية - في هذه الحال - لم تكن أكثر من جسر عبرت عليه الماركسية!

واسمحوا لي أن أقول، مع شديد الأسف، إن هذه النتيجة ساهم في الوصول إليها بشكل من الأشكال الباحثون الذين عملوا على التقليل من أهمية ارتباط العروبة بالإسلام، أو الذين عملوا على إضفاء الطابع التاريخي على هذه الصفة.. أو الذين حاولوا جاهدين لجعل الإسلام نفسه صورة من صور العبرية العربية، أو من نتائجها إلى حد كبير.. لئلا يسهل فيها ذلك بعض المؤرخين الذين حاولوا

تضخيم تاريخ الجاهلية العربية على حساب التاريخ العربي الإسلامي، أو مع إبراز مذبخلافات التي حصلت في تاريخ الإس لام.. أو الذين حاولوا أن يرتقوا بسند القومية العربية إلى تاريخ الجاهلية... وأن يملروا به بعد ذلك بعض المحطات في التاريخ الإسلامي.. ولو وصل الأمر إلى وضع السلاجقة - مثلاً- الذين قاوموا الغزو الروماني والغزو الصليبي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، مع الصليبيين في قاتعة العدوانا لخروج على القومية العربية والأمة العربية.. وبالعجائب المفلوقات!

ويمكن أن نضيف إلى هاتين الحالتين البارزتين اللتين شكت فيهما القومية تحدياً للهوية العقائعية سائر الحالات الأخرى التي أخل فيها الطرح القومي برابطة العقيدة، أو بأخوة الإيمان والاعتقاد التي عقد الله تعالى بين المسلمين جميعاً بقوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

2- التحدي العلماني:

أما العلمانية فقد فصلت في واقع حياة الأمة العربية الإسلامية، أو في حياة المجتمعات العربية الإسلامية إلى حد كبير بين (العقيدة) و(نظام الحياة)، بغض النظر عن الفروق التي قامت بين هذه المجتمعات في فهم العلمانية وتعاملها معها.. أو بغض النظر عن مدى الإعلان السياسي عن تبنيها وتطبيقها.

فإذا أضفنا إلى ذلك: الأثر الإيجابي للعلمانية على الصعيد الأوروبي في النهضة والتقدم العلمي.. ومدى حاجة مجتمعاتنا إلى تقدم مماثل.. أدركنا مدى الخطورة في تحدي العلمانية لهويتنا العقائعية لأنها لا تمسّ جوهر (العقيدة)، ولا تتناقض أركان الإيمان، بل لا تعارض من حيث الأصل والنشأة حرية الاعتقاد من وجه، في الوقت الذي باتت فيه مطلباً- أو مخرجاً- عند كثير من المثقفين.. من وجه آخر! حتى تمعندهم الربط بينها وبين (التقدمية) في بعض العناوين أو الشعارات.. فزعم من زعم أنه يمثل (الاتجاه التقدمي العلماني)، وإن كان من الملاحظ أن العلمانية مشّت غالباً في ركاب الدعوة القومية أو الفكر القومي لأسباب لا مجال للحديث عنها الآن، وأن هذا الفكر شكل تحدياً لا منخ لال العلمانية التي مشّت في ركابه فحسب، بل من خلال بعض طروحاته الخاصة التي أشررت إليها قبل قليل.

وعندما يعود المرء ليتفحص هذا التحدي العلماني يُلْقَى على الفصل ، أو القطع المذكور بين العقيدة ونظام الحياة، يجد أنه تحدّي ثقافي شامل وليس تحدياً عقدياً فحسب.. وعلى الرغم من أن الحديث في هذا التحدي الثقافي ليس موضوع بحثنا الآن ؛ فإنني أشير منه إلى نقطة جوهرية واحدة تبدو ضرورية لفهم هذا التحدي الشامل أو تفسير من وجهه، وتمهد في الوقت نفسه للحديث عن صورة التحدي العلماني الخاص بالعقيدة الإسلامية وحدها فيما نؤدر.

الثقافة الإسلامية بفروعها أو مكوناتها المختلفة، من عقيدة وعبادة وشريعة وسياسة واقتصاد وتربية وأخلاق واجتماع.. أصولها ومنطلقاتها- وثوابتها - دينية جاءت في الكتاب الكريم ونطقت بها السيرة المطهرة. وحين فهمنا من خلال الطرح العلماني، المنقول أو المستعار، أن (الدين) صلة روحية، وأن دائرته لا تتعدى البعد الفردي للإنسان ، أو لا تتعدى حياته الشخصية المتمثلة في علاقته مع ربّه سبحانه وتعالى.. فكأننا وضعنا في هذه الحال (العقيدة) محل (الدين) أو كأننا بعبارة أدق: قصرنا مفهوم (الدين الإسلامي)، أو الإسلام، وليس أي (دين) على (العقيدة) أو نزلنا بمفهوم الإسلام الشامل إلى العقيدة وحدها، علما رغم من أن العقيدة تمثل قاعدة الثقافة وأساسها المكين!

وهذا هو أساس أو منطلق الفصل السابق الذي نتحدث عنه بين (العقيدة) - أو الدين بهذا المفهوم الجديد- وبين سائر المكونات والعناصر الثقافية السابقة. فلذا تذكرنا أن الشخصية الإسلامية تقوم بالثقافة الإسلامية، أو تعد صورتها التطبيقية أو السلوكية المكافئة؛ علمنا كيف أُلْقِيَ التحدي العلماني الثقافي أدّى في الواقع إلى تفريغ الشخصية الإسلامية من محتواها الثقافي؛ الأمر الذي مهّد لملءها بأقوى النماذج الثقافية القائمة في عالم اليوم، وهي الثقافة الأوروبية بفروعها المختلفة السابقة-من اقتصاد وإعلام وتربية وقانون.. إلخ- وهذا هو أساس التغريب أو التغريب الذي جاءت به الدعوة إلى العلمانية أو مشى في ركابها!! بل نذهب فيتعليلاً هذه الظاهرة أبعد من ذلك.. فنقول ، أو نضيف: إن هذا الملء جاء كذلك أو في الوقت نفسه، من خلال ارتباط هذا النموذج الثقافي نفسه بالعلمانية الأوروبية، التي تم نقلها أو التبشير بها.. أي كأننا طلبنا النموذج الثقافي الأوروبي ، أو دُفِعنا في مناخه.. من حيث نظرته إلى (الدين)، ومن حيث نظرته إلى (الحياة) ، أو من حيث (منهاجه) في الحياة!

ورصلنا إلى الحديث عن التحدي الذي قادتته العلمانية في وجه العقيدة الإسلامية، أو وقعت فيه. وذلك من خلال النقطتين التاليتين:

الأولى: أن العلمانية نازعت الإسلام سلطانه الثقافي، وسلبت المسلم ينحوقم في إقامة نظام حياتهم وفق الإسلام، بوصف عقيدة وشريعة ومنهج حياة! وقد وقعت هذه المنازعة - كما أوضحنا - من خلال تعارض العلمانية مع الأصول الدينية للثقافة الإسلامية في مختلف فروعها، أو ما عرفت الفحوى الديني (الإسلامي) لهذه الفروع! وقد كان في وسعنا أن نضيف: بغض النظر عن موقفها - أي العلمانية - من قضية العقيدة والإيمان! لولا أن هذا الموقف بات في نهاية المطاف سلبياً.. بل بات يشكل تحدياً حقيقياً للهوية العقائدية، لأن هذه العقيدة لها مسئلة زمامتها وتوابعها الثقافية - التبعات العلمانية لمحاربتها وإقصائها - وبقاء هذه العقيدة سليمة سوف يدفع بأبناء الأمة الإسلامية إلى استئصال نمط حياتهم وسلوكهم وفق النظام الإسلامي! الأمر الذي استتبع العدوان على العقيدة أو التشكيك فيها، أو التعفية على آثاره، من خلال جميع فلسفت التشكيك التي عرفتھا الثقافة الأوروبية، أو عرفھا الأوروبيون خلال الثورة العلمانية - إن صح التعبير - وقد أثبتت كل النماذج العلمانية التي فرضت على العالم الإسلامي هذه الحقيقة، فلم تكن (حيادية) حتى نحو العقيدة الشخصية أو الاعتقاد الفدي، والسلوك الشخصي عند المسلمين.

أما النقطة الثانية: فهي أن (فحوى) العلمانية، أو خلاصتها الحقيقية أو الأخيرة عند دعائها من أبناء الأمة العربية الإسلامية، لا تعدو أن تكون في واقع الأمر إيقاعاً للمماثلة أو تحقيقاً للتشابه بين المجتمعات الإسلامية والأوروبية، أي تحقيق (صورة) التغريب الذي أشرنا إليه! ولهذا فإن المجتمعات الأوروبية قد تقبل وتقرّ من مسائل العقيدة الفردية والسلوك الشخصي ما لا يقرّه أو يقبل به العلمانيون المتغربون - والمغربون - في المجتمعات الإسلامية، فلا ضير على المرأة أن تلبس في أوروبية ما تشاء،

ولكن العلمانيين من المسلمين لا يقبلون منها بغير نزع الحجاب ! أكتب هذا وبين يدي خبر في صحيفة يقول (إن المنشور رقم 108 الذي يمنح ارتداء الحجاب قد تعدى العمل به الإدارات والمعاهد ليصل الأمر إلى تمزيق الحجاب في الشوارع من طرف مليشيات الحزب الحاكم) في بعض دول المغرب العربي! ولا يتسع المجال لأكثر من هذه الإشارة في هذا المقام .

وإذا نظرنا أخيراً في هذه التحديات غير المباشرة، القومية والعلمانية، لمصعب علينا ملاحظة أن المد الذي تمتعت به بعض الوقت أخذ بالانحسار عن هوية الأمة! أو للاحظنا مدى اطراد نجاح هذه الهوية في امتحان التحدي القاسي الذي تعرضت له ، على الرغم من بعض المظاهر السلبية الصاخبة التي ما تزال تعزل وجه هذه الهوية..

- فالقومية لم تغن عن العقيدة، ولم تستطع أن تحل محل الدين.. علما لرغم من تلك الصيحات التي تدعو إلى الإشفاق من هذا الجهل بالدين والقومية جميعاً! والتي ولدت ميتة في الواقع وحقيقة الأمر. ولا نبعد إذا قلنا إن القومية التي تبرأ من الزندقة والإلحاد لم ينجح بعضهم في اتخاذها سُلماً للزندقة والإلحاد يشوّه به هوية الأمة ، ويبيء إلى قيمها! فضلاً عن أن القومية بطبيعتها، أو من حيث كونها وضعت من أوضاع الخلق (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرِفُوا)⁽¹⁾ لا تشكل تحدياً لهذه الهوية. ولا تناقضها أو تتعارض معها! أما اقترانها بالمذاهب التي أشرنا إليها؛ فعلى الرغم من أن طبيعتها لا تستلزم مثل هذا الاقتران ؛ فإن بعض هذه المذاهب، وأعني به الماركسية، قد سقط وخرج من نطاق التاريخ، فكراً ونظماً، أو ديناً ودولة.. كم أشرنا في هذا البحث.

- أما العلمانية التي ما تزال الدعوة إليها قائمة تحت عناوين شتى، وبمعاذير وأسباب مختلفة داخلية وخارجية، وسياسية وثقافية.. فإن

وجهه القبيح في العالم الإسلامي لم ينجح في إخفاء هوية الأمة أو فيالتعفية عليه .. على الرغم من هذه الفرصة الطويلة جداً التي أعطيتها.. وما اكتنف الأمة خ لالها من الضعف والتمزق والاستلاب الحضاري، وما وقع عليها وعانت منه من الاستبداد السيا سري والظلم الاجتماعي. وقد تمثل هذا الوجه القبيح للعلمانية، كما بسطنا فيه القول فيدراسة أخرى ، في التغريب والتغريب ، وفي التجاوز والعنوان، وفيالطائفية وتكريس التخلف⁽¹⁾! بل تمثل هذا الوجه باختصار شديد في كونالدولة الحديثة - القطرية أو الدكاكينية - التي مثلت العلمانية ودعت إليها والتي باتت تحمل عليها شعوب الأمة بسطوة الإرهاب، وقعت في (تناقض مع الدين الاجتماعي المكوّن للأمة والدولة)، أي الإسلام بوصفهاالمؤسس للاجتماع السياسي على حد تعبير الباحث الحضيف الأستاذبره ان غليون. يقول الدكتور غليون: (الدين - في الإسلام- هوالمؤسسلاجتماع السياسي.. بقدر ما أصبح الاشتراك في العقيدة أساسهذا الاجتماع بدل الخضوع للدولة والمشاركة في عبادة السلطة) ويضيف:(إن انتقال الدولة الحديثة من أوروبة إلى المجتمعات العربية الإسلاميةجمع لها أداة استلاب جماعية، ورمزاً للروح القهرية والأجنبية بحيث نج دالدولة الحديثة في تناقض م ع الدين الاجتماعي المكوّن للأمة والدولة)⁽²⁾.

(1) انظرلغشينا: القومية والعلمانية: مدخل علمي. مؤسسة الرسالة، بيروت 1992.

(2) رقة الرئاسة، الدين والدولة. بوهان غليون. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1991.